الدُمية

بقلم رشا فوزي

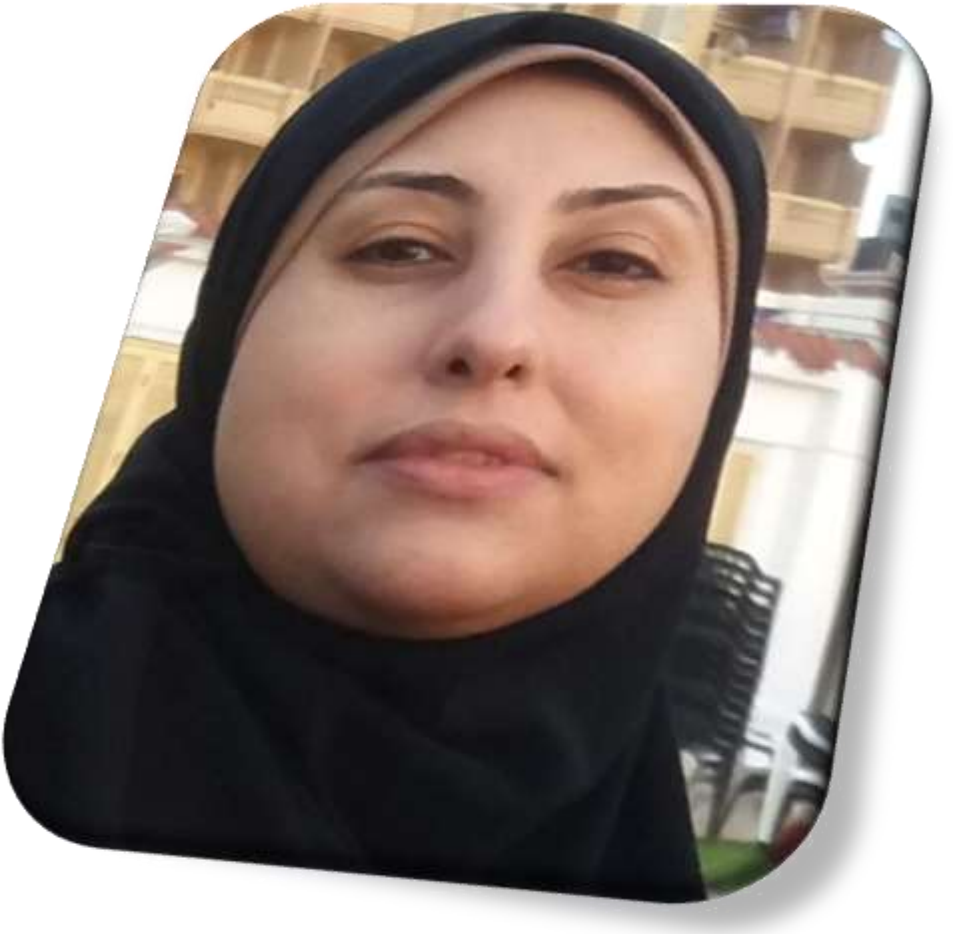

في عالم أُحكِمت فيه قبضة الرجال على أقدار النساء، كانت تقبع هي خلف واجهة المتجر اللامعة ترقب الأحياء بأعين زجاجية تشع براءة، في غدوهم ورواحهم، نظرات خلت من أي إحساس، تنتظر بلامبالاة اللحظة التي سيتم فيها بيعها لمن يستطيع دفع ثمنها! أقبل نحوها صاحبها يربت عليها بحرص، فهي سلعته النفيسة، ينتظر من وراءها ثروة هائلة!

- "خُلقتِ دُمية، وهكذا يجب أن يكن نهجك في الحياة!"

كان يردد تلك العبارة على مسامعها دومًا، لم تكن تعي ما الذي تعنيه أو ما الذي عليها فعله؛ لكنها لم تسأل قط! جاءها يومًا البحر راغبًا فيها، عارضًا لآلئه وكنوزه المخبوءة، وهو يخبرها وصاحبها بسماجة:

-" عليكِ أن تكوني سمكة من أسماكي، بالتحديد سمكة زينة!

نظرت المسكينة ببلاهة لصاحبها الذي سال لعابه، ليمسكها متجاهلًا نظراتها المصوبة نحوه بحيرة، ويلقيها في أعماقه، متمتمًا بجشع:

- "هي لك! "

غاصت وغاصت حتى القاع، شعرت بأنفاسها تتلاشى، هي تختنق، تغرق، لم تنفعها الأرض المعبدة باللؤلؤ والمرجان التي استقبلتها برياء مُرحِبة، لم تسعدها ألوان القاع المبهرة التي تبث بهجة مزيفة في النفوس، بينما تخفي خلفها ظلامًا دامسًا ينضح كآبة.

مع الوقت ظنت أنها أصـــبحت غير مرئية، أو ربما غير موجودة من الأســـاس، حتى التقت به، كان يبدو كعريس من عرســـان البحر، خياليًا، فاتنًا، جســـورًا، والأهم أنه يراها وفي لحظة من لحظات الشوق سرقها فارًا بها إلى حيث الشمس مرة أخرى، أخذت تعُب من الهواء وهي تظنها الحرية، الحرية والحب، يا له من حلم جميل، أفاقت منه على صوته ساخرًا:

-" هنا الأرض عزيزتي؛ وعليها لا يوجد شيء بلا ثمن!"

ثم همَّ قابضًا على معصمها يطوقه بقوة، وقد استحال إلى كرة نارية ملتهبة، وأردف:

- "أريدك لهيبًا من لهبي، تحرقي، تدمري، تعيثي فيها فسادًا!"

معه كانت روحها تحترق رويدًا .....رويدًا حتى صارت رمادًا منثورًا على جوانب نفسها الشقية، فعاشت معه جسدًا بلا روح، تتخبط بين جانبي الدنيا بلا هوادة، ترقص على صـــخب لياليها الداعرة كالممســـوســـة، حتى رأت آخر يومًا مقتحمًا أرض الحمم التي اســـتوطنتها مع كرة اللهب، جاء محاربًا، مجاهدًا، رافعًا راية، ظنته قادمًا من الســـماء، ظنته الخلاص، انتشـــلها من براثن كرة اللهب، كاسـيًا عُريها سـوادًا، محلقًا بها في عالمه القاحل المقفر، لتكتشـف بعد فترة وجيزة، أنه ليس ســـوى قناصًـــا مأجورًا منزوع القلب، وهي غنيمته بل عبدته وأقل من ذلك شـــأنًا! كانت تســـليته معها إماتة لقلبها لتصـبح مثله، وقد كان له ما أراد، فصـارت بلا روح ولا قلب، بأعين زجاجية تشـــع برودًا، نظر فيهما القناص ذات يوم وهو يقول لها:

-" أريدك سهمًا مسمومًا من سهامي أطلقه إلى صدر ضحيتي؛ فأرديه قتيلًا! "

وأشـــار إليها حيث المتجر ذي الواجهة اللامعة، فهزت كتفيها باستهانة، وسارت نحوه. وعندما دلفت إليه، وجدت من كان يومًا صاحبها، يستصرخها باستعطاف:

-" دُميتي! "

أقبلت عليه ببراءة مصطنعة؛ حتى بلغته، وما إن تمكنت من رقبته؛ حتى نحرتها دونما طُرفة عين، ثم مضـــت ملوثة بدمائه، قابضـــة بيدها على ســـكينها تقطر دمًا، نحو الواجهة اللامعة، ترقب الأحياء في غدوهم ورواحهم بأعين زجاجية تشع قسوة، وهي تمتم بخفوت:

- ولقد أدركت نهجي جيدًا!!

تمت بحمد الله